الفصل الثامن

عالمية الأدب الإسلامي عند النورسي

- المحصلة النهائية لرحلته مع الأدب
- نماذج من أدب النورسي
  - النموذج الأول: حديثه عن القرآن الكريم
  - النموذج الثاني: حديثه عن محمد الرسول والرسالة
  - النموذج الثالث: حديثه عن الحرية

عالمية الأدب الإسلامي عند النورسي

المحصلة النهائية لرحلته مع الأدب

فبعد رفضه للآداب الأوروبية وفضح أسسها وبيان طبيعة بنائها الفكري وأهدافها اللادينية، وبعد رفضه للتيارات الأدبية التركية وغير التركية في المحيط الإسلامي، التي تعتمد على التيارات الأوروبية وتسعى إلى أن تكون مجرد رشح لها، ومتأوربة مثلها، دون غربلة أو تمحيص أو مراعاة لطبيعة الإنسان الشرقي المسلم وبيئته مهبط الرسالات السماوية.

بعد هذا كله يصرح النورسي بأنه لا بديل للمسلمين -ولا لغير المسلمين- من الأدب الإسلامي القائم على الأسس العقيدية والفكرية الإنسانية الربانية، والسعي إلى أهداف سامية تليق بالإنسان، والذي يعتمد آليات وأجناساً تقوم على الصدق والوضوح والارتفاع بالنفس الإنسانية والوجدان وتهذيبهما وصولا بهما إلى الانسجام مع الكون الذي يسبح كله بحمده ﷻ... إن هذا الأدب الإسلامي الملتزم هو -وحده- الأدب الذي يمثل الإيمان والوجدان اللذين يُعَدان قلب الحضارات، كما يمثل العلمُ بمنجزاته المتعددة عقلَ الحضارات، والمادةُ بثقلها وضغطها تمثل جسد الحضارة.

وعلى النقيض من تأثير هذا الأدب الإسلامي، تتوارى وتختفي في عصور الهيام بالمادة وهيمنتها على العقل والوجدان بواعثُ الإيمان ومظاهره في النفس والمجتمع، ويصبح العقل خادماً لا سيدا...

وفي ظل فلسفة المادة هذه يتخلى الإيمان والعقل عن دورهما الهام في قيادة النفس والمجتمع، والسيطرة على ميادين الحياة بعدما أضحت الحياة نفسها

(مأساة وملهاة) حين أمسكت فلسفة المادة بكل الخيوط، وأضحت مفاهيمها هي التي توجه مسيرة الحياة والأحياء.

وتلك هي معاناة مدنية الغرب التي بدأت تتآكل من داخلها بجراثيم الوضاعة والمعصية والكوكايين والهيروين والإيدز.[1]

وفي مقابل الرؤية المادية الجزئية لرسالة الأدب كانت واقعية الإسلام العظيم -وعالميته أيضاً- حين جمع في منهجه بين الدنيا والآخرة، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والمادة والروح، والملك والملكوت، والعقل والقلب، والسيف والقلم، والحرية والانضباط، والفن والأدب والالتزام الداخلي... وهو تكامل لا يَصلح الوجود الإنساني إلا به، ولا ترتقي الحياة وتزداد بدونه، حتى لا يطغى جانب على آخر، ولا يشبعَ جانب ويجوعَ الآخر، فيتمَّ التركيز على الأدب والفن والوجدان، ويهملَ العقل أو المادة... لكن بهذا التكامل يتوازن الإنسان مع ذاته أولا، ومع البيئة من حوله، ومع الوجود كله باعتباره جزءا من هذا الوجود وعنصرا من عناصره المؤثرة فيه والمتأثرة به.[2]

ويلفت بديع الزمان سعيد النورسي نظرنا بشدة إلى هذه الحقيقة فيقول:

"إن الذين يبحثون عن كل شيء في المادة عقولُهم في عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات" بينما قد يمزج النورسي في رؤيته بين جمال الفكر وروعته، وبين متع الحياة ولذاتها في داخل النفس، وهو الجانب الذي يقوم الأدب الإسلامي بتحقيقه من خلال استخدامه لأجناس الأدب ورؤيته الجمالية ولنورانيته التي تجمع بين عمق الرؤية الإسلامية وبين شروط الأدب التي لا خلاف حولها.

يقول النورسي: "مَن حسنت رؤيتُه جَمُل فكره، ومن جَمُل فكره تمتع بالحياة والتذ بها".[3] والنورسي هنا -كما يقول الدكتور كمال أبو محمد- قد

---

(١) إبراهيم أبو محمد ص٥٦، سوزلر القاهرة ط١، سنة ٢٠٠٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

جمع وأبرز القيمة والرؤية المعنوية التي يحققها الأدب الصحيح وهي إحسان الرؤية للأشياء، فالأشياء في حد ذاتها مادية، ولكن النظرة إليها بعين المسلم والفنان تضفي عليها بُعدا آخر، وحسا جديدا، ما كان الوجدان يستشعره ويحسّ به لولا إحسان الرؤية. وإحسان الرؤية هنا مبعثه النظر إلى فلسفة الأشياء لا إلى الأشياء نفسها، فالصور الجامدة لا تبقى جامدة في تصور الذين ينظرون إليها نظرةَ تفكر وتأمل، وإنما تبدو خلفها حكمةٌ عليا، وإرادة تتسم بالدقة والإحكام، وعلم يحيط بالأشياء من كل جانب، ويلحظ الرابطَ القوي بين النسب والأحجام والكتل والأوزان.(١)

ومن هنا كانت رؤية النورسي لوظيفة الأدب -في إطارٍ إنسانية إسلامية- رؤيةً قادرة على توجيه الأدب وجهة عالمية إيجابية بَنَّاءة تقود إلى الخير العام والانسجام الإنساني.

لقد فهم تلامذة بديع الزمان المباشرون من طلاب النور هذا التوظيف النورسي للأدب، فلهذا أشاروا إليه في مقدمتهم لبعض منظومات النورسي "اللوامع" التي تشبه الشعر وتأخذ بعض قوالبه، وما هو بالشعر، وما قصد هو أن تكون شعرا، وإنما أرادها خواطر تأخذ أجمل ما في الشعر وأجمل ما في النثر.

لقد ذكر تلامذته: "صنغور، ومحمد فيضي، وخسرو" أن هذا الديوان الموسوم بـ"اللوامع" لا يجري مجرى الدواوين الأخرى على نمط واحد متناولاً عددا من المواضيع، ذلك لأنه كتب على أسلوب النثر. فعلى ذلك إنه لا يجنح إلى الخيالات والانطلاق من أحاسيس غير موزونة كما هو في سائر الدواوين. فلا يضم هذا الديوان؛ بين دفتيه إلا ما هو موزون بميزان المنطق وحقائق القرآن والإيمان.

ولقد اقتدى أستاذنا واستفاض من نورِ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾(يس:٦٩). فما كان له ميل إلى النظم والشعر ولم يشغل نفسه بهما أبدا. وقد تم تأليف هذا الديوان الشبيه بالمنظوم خلال عشرين يوما. ومع وروده فطريا وتلقائيا فقد طُبع كما ورد

(١) إبراهيم أبو محمد: المصدر السابق ص٥٩، ٦٠.

دون أن يطرأ عليه تصحيح أو تشذيب أو تدقيق يجعلنا نراه خارقة من خوارق رسائل النور؛ فلا نعلم ديوان شعر مثل هذا يسهل قراءته نثرا دون تكلف.

في مقدمة الديوان وتحت عنوان: "تنبيه" يؤكد النورسي رؤيته للشعر المنضبط بالإسلام فيقول: "ولم أشأ قط تغييرَ صورة الحقيقة لتُوافق أهواء القافية نظير (التضحية بـ"صافية" فداء للقافية) وهي قصة امرأة تركية [اسمها "صافية"] طلقها زوجها لتستقيم له القافية". ولأجل هذا فقد ألبستُ أسمى الحقائق أرداَ الملابس في هذا الكتاب الخالي من القافية والنظم... وذلك:

أولا: لأنني لا أعلم أفضل من هذا. فكنت أحصر فكري في المعنى وحده، دون اللفظ.

ثانيا: أردت أن أبين بهذا الأسلوب نقدي لأولئك الشعراء الذين ينحتون الجسد ليوافق اللباس.

ثالثا: أردت إشغال النفس أيضاً بالحقائق العالية مع انشغال القلب بها في هذا الشهر المبارك شهر رمضان.

وعن الأسلوب الشعري في رسائل النور، يقول شريف ماردين: إن اللهجة الأدبية لبديع الزمان تنطوي على أسلوب إيماني غني بالمجازات، لذا فهذا الأسلوب المغلق الذي يهز المشاعر اكتسب قوة ساحرة.

ويشبّه "جميل مَرِيج" رسائلَ النور بالريح العاصفة. أما "سزائى قراقوج"، فعندما يؤكد على تأثير هذه المؤلفات بإيقاعات كلماتها وأسلوبها يقول: إن رسائل النور هي كليات ثقافة إسلامية وحدها. وهاتان جملتان من رسائل النور: إن الكرة الأرضية مأمورة وموظفة من لدن الفرد الواحد سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد فحينما تستلم الأمر الواحد الصادر من آمرها الأحد، تهب منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور كالمريد المولوي العاشق -عند قيامه للسماع- فتكون وسيلة لحصول المواسم الأربعة.

ثم إن الإيمان قد بصرني بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة

الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة أنها ليست كذلك، وإنما هي انطلاق لروحي -التي هي أهل للحياة الأبدية ومرشحة للسعادة الأبدية- من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد.[1]

لقد رفض النورسي أن يكون خياله الشعري خيالا هائما جامحا.

وكأن النورسي عندما ألزم نفسه هذا المنهاج في الشعر أو في النثر الفني الذي يتشبه بالشعر إنما أراد أن يقدم لنا خلاصة رؤيته للأدب الإسلامي الذي يجب أن تكون رسالته عالمية وإنسانية، معبرة عن المفاهيم القرآنية وغاياتها... وكأنه أيضا يقول للشعراء المسلمين: هكذا يجب أن يكون الشعر الذي ينتسب إلى الإسلام... وهكذا يجب أن يكون الخيال الإسلامي... فحتى وهو في قمة جنوحه وعطائه الخيالي يجب أن يستشعر رسالته ومسؤوليته، ولا يهيم في واد بدون ضوابط أو أهداف... ويقول مالا يمكن فعله، أو ما لا يرضى أن يفعله.

نماذج من أدب النورسي

يعالج النورسي كثيرا من القضايا الوثيقة الصلة بالعقيدة، أو بالرؤية الإسلامية للإنسان والحياة أو الكون بأسلوب أدبي بديع يعلمنا من خلاله كيف نجعل الأدب -بأساليبه البيانية الرائعة- أخا شقيقا للعلوم والحقائق، وليس عالَماً هائما جانحا منفصلا عنها أو مضادا لها.

إن بيان النورسي وأساليب عرضه تملك كل كياننا فهي -مع أنها أدب- تدخل إلى عقولنا، ومع أنها "عقل وعلم" تدخل إلى قلوبنا ووجداننا... فالأدب والعلم والوجدان والعقل، كلها تعمل معا وبتعاون وانسجام في رسائل النور.

وإذا أردت أن تقوم بدراسة أدبية لكل تراث النورسي، فسوف تجد شواهد من كل تراثه.. عبر كل رسائل النور، وأيضاً إذا أردت أن تقوم بدراسة عقلية، فسوف تجد تراثه يتجلى أمامك غاية في الانسجام مع العقل الرشيد والفطرة السليمة.

---

(١) الميزة الشعرية لرسائل النور، محسن قالقيشيم، ص٦٨٤-٦٨٥. المؤتمر العالمي، بديع الزمان سعيد النورسي من ٢٤-٢٦/ ٩/١٩٩٥.

وليس إلا القرآن الكريم الذي عاش له -وفيه- بديع الزمان النورسي ومحققا لهذا المزج بين البيان والأدب، والحقائق والعقل في نسيج واحد.

إن الأساليب تقدَّم في أوفى صورها، لكنها لا تقدَّم لذاتها، ولا تقدم بطريقة متكلَّفة يظهر عليها قصد الصنعة، بل تقدم لتكون ملائمة تماماً للمعاني، مفصَّلة عليها، كما تفصَّل الأثواب على الأجساد بالدقة المتناهية الممكنة.

النموذج الأول: حديثه عن القرآن الكريم

من القرآن الكريم الخارق المعجز استقت رسائل النور أسلوبها، كما يستقى التفسير والشرح من المتن بل كانت قبسا من روح القرآن... واستلهاما من بيانه، وحياة في عالمه... فهي قبس من قبسات التنزيل، ونور من نور الذكر الحكيم... ونفحة من نفحات الحياة القرآنية المتجردة المؤمنة...

لقد عاش النورسي حكم الإعجاز في بلاغة القرآن، وبذل جهدا كبيرا في معرفة نواحيه البلاغية المعجزة منطلِقا من الرؤية التراثية مكملا لها ومضيفاً إليها.

وقد ذكر النورسي أن الإعجاز في بلاغة القرآن يوجد في خمس نقاط:

أولاها: أن في نظم القرآن جزالة خارقة، فكلماته كعقارب الساعة العادَّبة للثواني والدقائق والساعات يكمل كل منها نظام الآخر.[1] وثانيتها: البلاغة الخارقة في معناه.[2] فمعانيه في القمة من القوة وسمو الفائدة ورصانة البلاغة، وثالثتهما: الإبداع الخارق في أسلوبه.[3] رابعتها: الفصاحة الخارقة في لفظه.[4] وخامستها: براعة البيان القرآني متانة وتفوقا وهيبة.[5]

أما جامعية القرآن الخارقة، فقد أبصرها حس النورسي ووجدانه وعقله في خمس لمعات:

---

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٤٢٦.

(٢) المصدر السابق ص٤٢٩.

(٣) المصدر السابق ص٤٣١.

(٤) المصدر السابق ص٤٣٦ و ص٤٣٩.

(٥) المصدر السابق ص٤٣٩.

أولاها: الجامعية الخارقة في لفظه.[1] فلكل كلام ولكل كلمة، ولكل حرف، ولكل حركة أو سكون، وجوه كثيرة تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة.

وثانيتها: الجامعية الخارقة في معانيه.[2] فخزينة معاني القرآن الجليلة مصادر لجميع المجتهدين.

وثالثتها: الجامعية الخارقة في عمله.[3] ففي القرآن علوم لا تحد ولا تعد.

ورابعتها: الجامعية الخارقة في مباحثه.[4] فقد جمع القرآن المباحث الكلية عن الإنسان والكون والخالق والماضي والحاضر والمستقبل، والدنيا والآخرة، وما في الدنيا، وما في الآخرة.

وخامستها: الجامعية الخارقة في أسلوبه وإيجازه.[5] فلأسلوب القرآن خزائن متعددة متكاملة من المعاني، وله جامعية تشير إلى أنواع المعارف الحقيقية والحاجات (البشرية) وفي القرآن إيجاز معجز، ففي كلمة واحدة براهين كثيرة، ترد صراحة وإشارة ورمزا، وفي القرآن إيجاز جامع، بحيث إن مثالا جزئيا في حادثة خاصة يمنحنا دساتير كلية وقوانين عامة، وفي القرآن جامعية خارقة في مقاصده ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه.

إن هذا الفقه النورسي العميق لجوانب البلاغة والإعجاز في القرآن مضافا إليه الممارسة العملية والفكرية للحياة القرآنية التي أمر الله المسلمين بها عندما قال لهم في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤)... هذا الفقه العميق وهذه الحياة العملية هما الأداتان اللتان حققتا لبديع الزمان هذه القدرة البيانية العجيبة، فجاءت رسائل النور في أسلوب بلاغي تصويري أدبي معبراً عن الحقائق بكل دقة كأنه تنزيل من التنزيل وفيض من روح القرآن المبين.

---

(١) المصدر السابق ص٤٥١.

(٢) المصدر السابق ص٤٥٧.

(٣) المصدر السابق ص٤٥٧.

(٤) المصدر السابق ص٤٥٧-٤٥٨.

(٥) المصدر السابق ص٤٥٩-٤٦٦.

وجاءت -كذلك- خطابا لكل الناس للمسلمين وغير المسلمين.

وفي ضوء هذا المنهاج في المزج بين الأدب والحقائق، والعقل والقلب قد تكلم النورسي عن إعجاز القرآن البياني والبلاغي مستلهما ما قدمه الأسلاف مضيفاً إليه ألوانا أخرى من الإعجاز، مثل: الإعجاز العلمي والغيبي والتشريعي فكأنه -بهذا البيان- قد قدم المعجزة القرآنية للعالم، وأقام عليها الحجة، وبين لها أن في كل كلمة قرآنية حجة على العقل الإنساني، فكيف بكل جملة وكل آية وكل سورة. كما بين أن كل سورة -أو آية- ترشح بالإعجاز القرآني كله، فهي وحدها -لو تعمق فيها العقل الإنساني بموضوعية- دليل قائم بذاته على ربانية القرآن وإعجازه، وحجيته على العالم كله.

إن النورسي يقدم للإنسان مفهومه -أو تعريفه للقرآن- من خلال سؤال يضعه هو، قائلا فيه:

القرآن ما هو؟ وما تعريفه؟

ثم يجيب على السؤال بقوله: القرآن هو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير، والترجمان الأدبي لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية... ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة... وكذا هو كشاف لمخفيات الكنوز المعنوية للسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض... وكذا مفتاح لحقائق الشئون المضمرة في سطور الحادثات... وكذا هو لسان عالم الغيب في عالم الشهادة... وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا... وكذا هو شمس عالم الإسلام المعنوية، وأساسه وهندسته.. وكذا هو خريطة مقدسة للعوالم الأخروية... وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشئونه... وكذا هو المربي لهذا العالم الإنساني... وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى... وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر... وهو المرشد المهدي إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة... وكذا هو للآنسان: كما أنه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة،

وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر...

وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تُحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية. حتى إنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره ولمساق ذلك المسلك وتصويره... فهذا الكتاب السماوي أشبه مايكون بمكتبة مقدسة مشحونة بالكتب.

إنه كلام الله بوصفه رب العالمين، وهو أمر الله بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السماوات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطاب أزلي باسم السلطنة الإلهية الشاملة العظمى. وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني النابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء... وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية؛ إذ بدايات بعضها رموز وشفرات... وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة.

والقرآن الكريم كتاب سماوي يتضمن -إجمالاً- كتبَ جميع الأنبياء المختلفة عصورهم، ورسائل جميع الأولياء المختلفة مشاربهم، وآثار جميع الأصفياء المختلفة مسالكهم... جهاته الست مشرقة، ساطعة، نقية من ظلمات الأوهام، طاهرة من شائبة الشبهات، إذ نقطة استناده: الوحي السماوي والكلام الأزلي باليقين... هدفه وغايته: السعادة الأبدية بالمشاهدة... محتواه: هداية خالصة بالبداهة... أعلاه: أنوار الإيمان بالضرورة... أسفله: الدليل والبرهان بعلم اليقين... يمينه: تسليم القلب والوجدان بالتجربة... يساره: تسخير العقل والإذعان بعين اليقين... ثمرته: رحمة الرحمن ودار الجنان بحق اليقين.

ومع أننا لا نستطيع أن نزعم أننا أحطنا بكل ما كتب عن القرآن إلا أننا نستطيع القول: إن هذا التعريف للحقيقة القرآنية. وفي هذه السطور القليلة يعد أجمع وأقوى ما وصلنا إليه، وهو تعريفٌ مَزَج بين العلم والأدب والفكر

والوجدان... وقد رشحت بهذا التعريف صفحاتُ رسائل النور.

والحق أن رسائل النور كلها في بنيتها الأساسية تعد حجة معاصرة مقتبسة من حجة الله الخالدة البالغة (القرآن).

فهذه الرسائل المقتبسة من القرآن والتي ظهرت في هذا العصر بواسطة بديع الزمان الزاهد الضعيف الفقير المخلص هي بحق حجة قرآنية عصرية على العقل الحديث المتمرد المسلح بالعلم -حسب زعمه- والمسلح بأسلحة الفلسفات العاجزة القاصرة في الحقيقة.

ولعل هذا العقل لو تسلح بالعلم وحده بعيداً عن غبش الفلسفات لوصل إلى الحق، ولأسلم عنان قيادته للقرآن الكريم.

ولسوف يبقى القرآن كلمة الله التي تعطي لكل العصور حاجتها المحققة لإنسانيتها والملائمة لفطرتها... وتقيم عليها -كذلك- الحجةَ العقلية والبيانية كي لا يكون للناس على الله حجة نقلية أو عقلية يتقدمون بها بين يديه سبحانه يوم الحساب... وكي لا تكون لهم شبهة أمام طغيان علوم الجدل والكلام وأساليب الإلحاد والشرك الملتوية الكثيرة.

ولسوف يقوم في كل قرن من يعود إلى القرآن عودة سعيد النورسي.. مقدِّماً سعيداً جديداً. وحسبنا هذا في الإشارة إلى المعجزة القرآنية العظمى كما قدمتها لعصرنا رسائل النور.

النموذج الثاني: حديثه عن محمد الرسول والرسالة

ونقدم نموذجاً آخر من نماذج الأدب العالمي والإنساني الرفيع الذي قدمته رسائل النور بأرقى بيان وأصفي فكر وأجلى حقيقة وأعذب أسلوب وأجمل تصوير.

إنه نموذج النبي الأعظم محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله بالقرآن، وهيأه ليكون القرآن العملي الذي يبصره عالم الجن وعالم الإنسان. ليكون حجته على الأحياء -جامعا لكل ما جاء به المرسلون- إلى يوم

القيامة، فهو العاقب والخاتم، ولا نبي بعده، ولهذا لزم أن يكون حجة كبرى متآلفة في كل جزئية وكلية من حياته على كل البشرية.

انظر -أو اقرأ- ببصرك وبصيرتك.. ما تكتبه رسائل النور عن هذا النبي الأعظم.

إنها تجيب على سؤال تضعه على لسان المستفهمين الأبرياء أو غير الأبرياء عن حقيقة هذا النبي فتقول لهم ولكل إنسان:

إن هذا النبي تصدقه الدلائل الآفاقية، وتصدقه مئات من معجزاته من أمثال شق القمر، وشِبَع الكثير من طعامه القليل، وهو كالشمس يدل على ذاته، فتصدقه الدلائل النفسية، وهو مجمع أعالي الأخلاق الحميدة، وأفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة، وكذلك قوة إيمانية بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته، وكمال وثوقه بشهادة سيرته وكمال جديته وكمال متانته.

ولكن كيف يمكن التأكد من كل هذا؟

إن الرسائل تجيب عن هذا السؤال... وتقول:

اعلم أن للمحيط الزماني والمكاني تأثيراً عظيماً في محاكاة العقول، فإن شئت فتعال لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة النبوية لنحظى بزيارته الكريمة ﷺ -ولو بالخيال- وهو على رأس وظيفته يعمل... فافتح عينيك وانظر فإن أول ما يظهر لنا من هذه المملكة شخص خارق، له حسن صورة فائقة في حسن صورة رائقة. فها هو أخذ بيده كتاباً معجزاً كريماً، وبلسانه خطاباً موجزاً حكيماً، يبلّغ خطبه أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات...

وهنا تتعرض الرسائل للإجابة عن سؤال آخر متوقع: فيا للعجب؟ ما يقول؟

نعم، إنه يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم؛ إذ يشرح ويحل اللغز العجيب في سر خلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التي شغلت العقول وأوقعتها في الحيرة، إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي:

من أنت...؟ ومن أين...؟ وإلى أين...؟

وهو ﷺ لا يجيب بكلمات مثل كلمات الفلاسفة، بل هو يجعل الكلمات أفعالاً وحياة وتغييراً للعالم الإنساني:

أنظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياء نواراً، ومن الحق نوراً مضيئاً، حتي صير ليل البشر نهارا، وشتاءه ربيعاً، فكأن الكائنات تبدل شكلُها فصار العالم ضاحكاً مسروراً بعدما كان عبوساً قمطريراً... فإذا ما نظرتَ إلى الكائنات خارجَ نور إرشاده، ترى في الكائنات مأتماً عمومياً، وترى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعضها بعضاً.

فهل نجح هذا المبعوث رحمة للعالمين في تغيير التاريخ.

تقول رسائل النور: تذكر العالم قبل الإسلام.. لقد كان مأتماً كبيراً وسجنا للعقل والقلب وللضعف وللحيرة.

فانظر، قد تبدل شكل العالم، فتحول بيت المأتم العمومي مسجدَ الذكر والفكر ومجلس الجذبة والشكر وتحول الأعداء الأجانب من الموجودات أحباباً وإخواناً، وتحول كل من جامداتها الميتة الصامتة حياً مؤنساً مأموراً مسخراً ناطقاً بلسان حاله آياتِ خالقه، وتحول ذوو الحياة منها -الأيتام الباكون الشاكون- ذاكرين في تسبيحاتهم شاكرين لتسريحهم من وظائفهم.

لقد تحولت بذلك النور حركات الكائنات وتنوعها وتغيراتها من العبثية والتفاهة وملعبة المصادفة إلى مكاتيب ربانية، وصحائف آيات كونية، ومرايا أسماء إلهية، حتى ترقى العالم وصار كتابا للحكمة الصمدانية.

وانظر إلى الإنسان كيف ترقى من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، لقد ترقى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل، والعجزِ والفقر، فانظر كيف صارت أسباب سقوطه من عجز وفقر وعقل أسبابَ صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني عليه الصلاة والسلام.

فعلى هذا لو لم يوجد هذا الشخص لسقطت الكائنات والإنسان، وكل شيء إلى درجة العدم، لا قيمة ولا أهمية لها.

فإن قلت: مَن هذا الشخص الذي نراه قد صار شمسا للكون، كاشفا بدينه عن كمالات الكائنات؟ ماذا يقول؟

قيل لك: انظر واستمع إلى ما يقول: ها هو يخبر عن سعادة أبدية ويبشر بها، و يكشف عن رحمة بلا نهاية، ويعلنها، ويدعو الناس إليها... وهو دلّال محاسنِ سلطنة الربوبية ونظّارها، وكشّاف مخفيات كنوز الأسماء الإلهية ومعرفها.

فانظر إليه من جهة وظيفته (رسالته) تراه برهان الحق وسراج الحقيقة وشمس الهداية ووسيلة السعادة.

ثم انظر إليه من جهة شخصيته (عبوديته) تراه مثال المحبة الرحمانية ومثال الربانية، وشرف الحقيقة الإنسانية وأنور أزهار ثمرات شجرة الخلقة.

وانظر، ليست سلطنته على الظاهر فقط، بل ها هو يفتح القلوب والعقول، ويسخِّر الأرواح والنفوس، حتى صار محبوبَ القلوب ومعلّمَ العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح.

فيا حسرة على الغافلين! ويا خسارة على الضالين، ويا عجبا من بلاهة أكثر الناس كيف تعاموا عن هذا الحق وتصاموا عن هذه الحقيقة؟ لا يهتمون بكلام هذا النبي الكريم ﷺ مع أن مِن شأن مثلة بأن تُفدى له الأرواح ويُسرَع إليه بترك الدنيا وما فيها؟

واعلم أن هذا النبي محمدا ﷺ المشهود لنا بشخصيته المعنوية، المشهور في العالم بشؤونه العُلوية، كما أنه برهان ناطق صادق على الوحدانية، ودليل حق بدرجة حقانية التوحيد، كذلك هو برهان قاطع ودليل ساطع على السعادة الأبدية بل كما أنه بدعوته وبهدايته سببُ حصول السعادة الأبدية ووسيلة وصولها، كذلك بدعائه وعبوديته سبب وجود تلك السعادة الأبدية ووسيلة إيجادها.

فإن شئت فانظر إليه وهو في الصلاة الكبرى التي بعظمتها وسعتها صيرت

هذه الجزيرة بل الأرض مصلين بتلك الصلاة الكبرى.[1]

ثم انظر، لأي قصد وغاية يتضرع؟

ها هو يدعو لمقصد لولا حصول ذلك المقصد لسقط الإنسان بل العالم بل كل المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معني. وبمطلوبه تترقى الموجودات إلى مقامات كمالاتها... ثم انظر، كيف يتضرع باستمداد مديد في غياث شديد في استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرش والسماوات ويهيج وجدها، حتى كأن العرش والسماوات تقول: آمين اللهم أمين.[2]

فيا للعجب! ما يطلب هذا الذي قام على الأرض، وجمع خلفه جميع أفاضل بني آدم ورفع يديه متوجهاً إلى العرش الأعظم، يدعو دعاء يُؤَمّن عليه الثقلان، ويُعلَم من شؤونه أنه شرف نوع الإنسان وفريد الكون والزمان، وفخر الكائنات في كل آن، ويستشفع بجميع الأسماء القدسية الإلهية المتجلية في مرايا الموجودات... فاستمع! ها هو يطلب البقاء واللقاء والجنة والرضا.

فيا رفيقي في هذه السياحة العجيبة! ألا يكفيك ما رأيت؟ فإن أردت الإحاطة فلا يمكن، بل لو بقينا في هذه الجزيرة مائة سنة ما أحطنا، ولا مللنا من النظر بجزء واحد من مائة جزء من عجائب وظائفه وغرائب إجراءاته.

فلنرجع القهقرى ولننظر عصرا عصرا، فكيف اخضرت تلك العصور واستفاضت من فيض هذا العصر؟ نعم، ترى كل عصر تمر عليه قد تفتحت أزاهيره بشمس عصر السعادة.[3] عصر النبوة الخاتمة، عصر محمد عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الإنسانية إلى يوم القيامة.

النموذج الثالث: حديثه عن الحرية

الحديث عن الحرية في الأدبيات المعاصرة الأوروبية أو المستغربة أو المستشرقة هو حديث لا ينقطع، وهو حديث عن حرية تبلغ حد الفوضى،

(١) المصدر السابق ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) المصدر السابق ص٢٦٣.

(٣) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٢٦٢.

تجعل الإنسان الفرد حتى لو كان يعيش تحت مظلة نظم شمولية أو اشتراكية أو عسكرية حرا في أية صورة من صور السقوط الأخلاقي، ما لم يحس المجتمع أو القانون... فهو حر أن يمارس الجنس أو الشذوذ الجنسي أو يشرب الخمور، أو يعري أكبر مساحة من جسمه، أو يختلط اختلاطا مشينا، أو يعلن كفره بالله وبالدين، أو ينقاد لشهواته بأي شكل من الأشكال.

وهذا هو مفهوم الحرية الذي سيطر على العالم المعاصر، للقضاء على كل الأديان والأخلاق.

إن هذه الحرية البهيمية -في المفهوم الأوربي- من أهم الفواصل الفارقة بين الإسلام وحضارته من جهة، وأوروبا المنسلخة من النصرانية وحضارتها من جهة أخرى. وفي مواجهتها تقف الحرية الإسلامية التي يسميها النورسي في أدبياته التي ترد في غير موضع من رسائل النور باسم "الحرية الشرعية" أو "أدب القرآن" المعبِّر عن مفهوم الحرية في إطار الإسلام.

وحتى في المستوي السياسي وليس المستوى الاجتماعي فقط يرفض النورسي "الحرية" في المفهوم الأوروبي... حرية المعاوضات الثابتة والجرأة على تحريم الحلال وإباحة الحرام... وهو لا يرى إلا الشرعية طريقا في كل المجالات.

يقول النورسي تحت عنوان: "الحرية الشرعية هي جنة الأمة الإسلامية":

أيتها الحرية الشرعية! إنك تنادين بصوت هادر، ولكنه رخيم يحمل بشارة سارة، توقظين بها قروياً بدوياً مثلي نائما تحت طبقات الغفلة، ولولاك لظللت أنا والأمة جميعا في سجن الأسر والقيد. فإذا ما اتخذت الشريعة التي هي عين الحياة، منبعا للحياة، فإنني أزف بشرى سارة أيضاً بأن هذه الأمة المظلومة ستترقى ألف درجة عما كانت عليه في سابق عهدها.

إن صدى الحرية والعدالة ينفخ نفخ إسرافيل، فيبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآمالنا الخامدة ورغباتنا القومية الرفيعة وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى يرن صماخ الكرة الأرضية المجذوبة، ويهيج الأمة جميعا.

وإياكم يا إخوان الوطن! أن تقضوا عليها بالموت مرة أخرى بالسفاهات والإهمال في الدين.

إن مائة ونيفا من السنين التي تأخرنا فيها عن مضمار الرقي والتقدم سنتجاوزها بإذن الله تعالى بمعجزة نبوية مستقلين -عملا- قطار القانون الأساسي الشرعي وممتطين -فكراً- بُراق الشورى الشرعية.

لا تفسروا الحرية تفسيرا سيئاً، كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في إناء آخر، ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة.

والبرهانُ الباهر على هذا الادعاء: هو ما كان يرفل به عهد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من الحرية والعدالة والمساواة على الرغم من الوحشية السائدة والتحكم المقيت.

وبخلافه: فإن تفسير الحرية والعمل بها على أنها التحرر من القيود والانغمار في السفاهات والملذات غير المشروعة، والبذخ والإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء اتباعا لهوى النفس... مماثلٌ لمن يتحرر من أسر سلطان واحد، ويدخل في استبداد حقراء سافلين كثيرين.. فضلا عن أن هذا النمط من الحرية يُظهر أن الأمة غير راشدة، وما زالت في عهد الصبا، وليست أهلا للحرية، فهي سفيهة وتستحق الحجر عليها.[1]

وتحت عنوان: "أضلت النساء البشرية بخروجهن من بيوتهن فعليهن العودة إليها" يحذر النورسي من هذه الحرية الأخلاقية الفوضوية ويبين سمو التشريعات الإسلامية في الحجاب واحترام البيت المسلم ويبين آثارها القاتلة على الفرد والمجتمع... يقول:

لقد أطلقت المدنية السفيهة النساء من أعشاشهن، وامتهنت كرامتهن وجعلتهن متاعا مبذولا.

بينما شرع الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن رحمة بهن، فكرامتهن فيها

(١) صيقل الإسلام، بديع الزمان النورسي ص٤٦٧-٤٦٩.

وراحتهن في بيوتهن وحياتهن في دوام العائلة. الطهر زينتهن. الخلق هيبتهن. العفة جمالهن. الأطفال لهوهن. ولا تصمد إزاء جميع هذه الأسباب المفسدة إلا إرادة من حديد.

كلما دخلت حسناء في مجلس تسود فيه الأخوّة أثارت فيهم عروق الرياء والمنافسة والحسد والأنانية فتتنبه الأهواء الراقدة.

إن تكشّف النساء تكشفا دون قيد أصبح سببا لتكشف أخلاق البشر السيئة وتناميها. هذه الصور التي هي جنائز مصغرة وأموات متبسمة، لها دور خطير جدا في الروح الرعناء للإنسان المتحضر، بل إن تأثيرها مخيف مرعب.[1]

وحول رشح الآداب الأوروبية بهذه الحرية البهيمية ومقارنه هذه الآداب بالأدب القرآني السامي الذي يعجز الأدب الأوروبي عن الوصول إلى قمته، يقول النورسي: لا تبلغ يد الأدب الغربي ذي الأهواء والنزوات والدهاء شأن أدب القرآن الخالد ذي النور والهدي والشفاء. إذ الحالة التي ترضي الأذواق الرفيعة للكاملين من الناس وتطمئنهم، لا تسر أصحاب الأهواء الصبيانية وذوي الطبائع السفيهة ولا تسليهم، فبناء على هذه الحكمة فإن ذوقا سفيها سافلا تَرعرع في حمأة الشهوة والنفسانية، لا يستلذ بالذوق الروحي، ولا يعرفه أصلا.

فالأدب الحاضر، المترشح من أدب أوروبا عاجز عن رؤية ما في القرآن من لطائف عالية ومزايا سامية، من خلال نظرته الروائية، بل هو عاجز عن تذوقها، لذا لا يستطيع أن يجعل معياره محكا له.

والأدب يجول في ثلاثة ميادين دون أن يحيد عنها:

ميدان الحماسة والشهامة، وميدان الحسن والعشق، وميدان تصوير الحقيقة والواقع.

فالأدب الأجنبي في ميدان الحماسة لا ينشد الحق، بل يلقن شعور الافتتان بالقوة بتمجيده جور الظالمين وطغيانهم، وفي ميدان الحسن والعشق لا يعرف العشق الحقيقي، بل يفرز ذوقاً شهويا عارما في النفوس، وفي ميدان تصوير

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٨٧٤.

الحقيقة والواقع لا ينظر إلى الكائنات على أنها صنعة إلهية. ولا يراها صبغة رحمانية بل يحصر همه في زاوية الطبيعة ويصور الحقيقة في ضوئها ولا يقدر على الفكاك منها، لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة، وتأليه المادة حتى يمكّن حبها في قرارة القلب، فلا ينجو المرء منها بسهولة.

ثم إن ذلك الأدب المشوب بالسفه، لا يغنى شيئا عن اضطرابات الروح وقلقها الناشئة من الضلالة والواردة منه أيضاً، ولربما يهدئها وينميها، وفي حسبانه أنه قد وجد حلا، وكأن العلاج الوحيد هو رواياته، وهي: في كتاب... ذلك الحي الميت، وفي سينما... وهي أموات متحركة، وفي مسرح... الذي تبعث فيه الأشباح وتخرج سراعاً من تلك المقبرة الواسعة المسماة بالماضي.

هذه هي أنواع رواياته، وأنى للميت أن يهب الحياة.

وبلا خجل ولا حياء! وَضَع الأدب الأجنبي لساناً كاذباً في فم البشر... وركّب عيناً فاسقة في وجه الإنسان... وألبس الدنيا فستانَ راقصة ساقطة."

ثم سمى الأدب الأجنبي غير الإسلامي كل ذلك أدباً حراً، أو فناً متحررا، أو فناً للفن، وهو كاذب في كل ذلك، فهو ليس فناً ولا أدباً ولا حرية، إنما حيوانية بهيمية تخلع على نفسها أردية لا تستحقها.